الحسين بن علي، ويزيد بن معاوية

"الحسين مني، وأنا من حسين".

تلخِّص تلك الجملة والتي قالها نبي الله وحبيبه سيدنا محمد، صلوات ربي وسلامه عليه، مكانة الحسين حفيده لديه.

الحسين الذي وقف أمام يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، والذي أراد البيعة لنفسه، فكان استشهاده بعد أن تخلى عنه أنصاره.

وُلد الحسين بن علي في المدينة المنورة بعد مولد أخيه الحسن، أراد أبوه أن يسميه حربًا، فسماه جده سيدنا محمد بن عبد الله الحسين، وأذَّن له في أذنه، ودعا له وذبح عنه يوم سابعه شاة وتصدق بوزن شعره فضة.. نشأ الحسين في بيت النبوة بالمدينة ست سنوات وأشهرًا، حيث كان فيها موضع الحب والحنان من جده النبي، فكان كثيرًا ما يداعبه ويضمه ويقبله، وكان يشبه جده النبي، خلقًا وطبعًا، فهو مثال للتدين في التقى والورع، وكان كثير الصوم والصلاة يطلق يده بالكرم والصدقة، ويجالس المساكين كما يروي بأنه قد حج قرابة الخمس والعشرين مرة.

بعد مقتل الإمام علي والده على يد عبد الرحمن بن ملجم، كان الحسين عونًا لأخيه الحسن في بيعته، وبايع الناس الحسن خليفةً للمسلمين عقب يومين من وفاة والده، وأرسل الحسن إلى معاوية بن أبي سفيان للمبايعة والدخول في الجماعة، لكنه رفض ذلك، فلم يجد الحسن أمامه من سبيلٍ غير القتال، أخذ يحث أنصاره على التحشد، وبلغ معاوية خبره، فقصده بجيشه، وتقارب الجيشان في موضع يقال له مسكن بناحية من الأنبار، هال الحسن أن يقتتل المسلمون، ولم يستشعر الثقة فيمن معه، فكتب إلى معاوية يشترط شروطًا للصلح،

أبرزها أن ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين ورضي معاوية.. فخلع الحسن نفسه من الخلافة وسلم الأمر لمعاوية في بيت المقدس.. لم ير الحسين رأي أخيه وظل معترضًا على النزول عن الخلافة، وإن سكت درءًا لفتنةٍ قد تنشب بين المسلمين، وأطلق على ذلك العام عام الجماعة.

بعد وفاة الحسن، استمر في الحفاظ على عهد أخيه مع معاوية ولم يخرج إلا بعد استلام يزيد الحكم.. كان من شروط الحسن في صلحه مع معاوية أن يتولى الحسن الحكم من بعد معاوية، فإن حدث حادث في الحسن، فالحسين، فلما أراد معاوية، أخذ البيعة لابنه يزيد، قام بدس السم للحسن، بحسب روايات الشيعة والسنة على حدٍّ سواء، أخذ معاوية يمهد لبيعة ابنه يزيد، ولكن زياد ابن أبيه، واليه على العراق نصحه بالتمهل وعدم الاستعجال في هذا الأمر، وقبل معاوية نصيحة زياد، ولم يعلن عن بيعة يزيد، إلا بعد وفاة الحسن، وبدأ جهوده في سبيل توطئة الأمر لابنه في المدينة المنورة؛ لأنها كانت العاصمة الأولى التي كان يبايع فيها الخلفاء وكان رجالات الإسلام فيها وعليهم المعول في إقرار البيعة وقبولها، وحين عرض معاوية ما عزم عليه على أهل المدينة عن طريق عامله عليها مروان بن الحكم، وافقه الكثيرون على ضرورة تدبير أمر الخلافة والمسلمين، ولكن حين عرض عليهم اسم يزيد، اختلفوا فيه وأعلن الكثيرون أنهم لا يرضون به، وكان أكبر المعارضين: الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر، غير أن دهاء معاوية فوت فرصة المصادمة؛ لأنه لم يجبرهم على البيعة.. ما إن توفي معاوية وبويع يزيد بالخلافة، حتى كتب يزيد إلى عامله على المدينة الوليد بن عقبة أن يأخذ الحسين وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذًا شديدًا ليست فيه رخصة حتى يبايعا، تدبر الحسين شأنه مع والي المدينة في خبر طويل،

ورحل عن المدينة من دون أن يبايع يزيد بالخلافة، واتجه إلى مكة المكرمة سرًا في جماعة من أصحابه وأهله.

وصلت أنباء رفض الحسين مبايعة يزيد واعتصامه في مكة إلى الكوفة، التي كانت أحد معاقل الفتنة، وبرزت تيارات في الكوفة تؤمن أن الفرصة قد حانت لأن يتولى الخلافة الحسين بن على حفيد رسول الله، واتفقوا على أن يكتبوا للإمام الحسين يحثونه على القدوم إليهم ليسلموا له الأمر ويبايعوه بالخلافة، بعد تلقيه العديد من الرسائل من أهل الكوفة، قرر الحسين أن يستطلع الأمر، فقام بإرسال ابن عمه مسلم بن عقيل، ليكشف له حقيقة الأمر، عندما وصل مسلم إلى الكوفة شعر بجوٍّ من التأييد لفكرة خلافة الحسين ومعارضة شديدة لخلافة يزيد بن معاوية، وحسب بعض المصادر الشيعية، فإن ما يقترب من العشرين ألف شخص قد بايعوا الحسين ليكون الخليفة، وقام مسلم بن عقيل بإرسال رسالة إلى الحسين يعجل فيها قدومه، قام أصحاب وأقارب وأتباع الحسين بإسداء النصيحة له بعدم الذهاب إلى ولاية الكوفة ومنهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وأبو سعيد الخدري، وعمرة بنت عبد الرحمن، ولكن الحسين كان قد صمم على الذهاب.

لما وصلت هذه الأخبار إلى الخليفة الأموي الجديد الذي قام على الفور بعزل والي الكوفة النعمان بن بشير بتهمة تساهله مع الاضطرابات التي تهدد الدولة الأموية، وقام الخليفة يزيد بتنصيب والٍ آخر كان أكثر قسوةً اسمه عبيد الله بن زياد، قام بتهديد رؤساء العشائر والقبائل في منطقة الكوفة بإعطائهم خيارين: إما سحب دعمهم للحسين، أو انتظار قدوم جيش الدولة الأموية ليبيدهم عن بَكرة أبيهم، كان تهديد الوالي الجديد فعَّالًا فبدأ الناس يتفرقون عن مبعوث الحسين مسلم بن عقيل شيئًا فشيئًا، لينتهي الأمر بقتل بن

عقيل.. اختلفت المصادر في طريقة قتله، فبعضها تحدث عن إلقائه من أعلى قصر الإمارة، وبعضها الآخر عن سحبه في الأسواق، وأخرى عن ضرب عنقه وقيل إنه صلب، وبقطع النظر عن هذه الروايات، فإن هناك إجماعًا على مقتله وعدم معرفة الحسين بمقتله عند خروجه من مكة إلى الكوفة، بناءً على الرسالة القديمة التي استلمها قبل تغيير موازين القوة في الكوفة، وقد علم الحسين بمقتل مسلم بن عقيل عندما كان في زرود في الطريق إلى العراق.

استمر الحسين وقواته بالمسير، إلى أن اعترضهم الجيش الأموي في صحراء كانت تسمى الطف، واتجه نحو الحسين جيش قوامه ثلاثين ألف مقاتل، يقوده عمر بن سعد بن أبي وقاص، ووصل هذا الجيش الأموي بالقرب من خيام الحسين وأتباعه، وفي اليوم التالي عبَّأ عمر بن سعد رجاله وفرسانه، فوضع على ميمنة الجيش عمر بن الحجاج، وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن، وعلى الخيل عروة بن قيس، وكانت قوات الحسين تتألف من قرابة الاثنين والثلاثين ألف مقاتل، وأعطى رايته أخاه العباس بن علي.

بعد أن رأى الحسين تخاذل أهل الكوفة وتخليهم عنه، كما تخلوا من قبل عن مناصرة مسلم، وبلغ تخاذلهم أنهم أنكروا الكتب التي بعثوا بها إلى الحسين حين ذكَّرهم بها، فعرض على عمر بن سعد ثلاثة حلول: الأول هو أن يرجع إلى المكان الذي أقبل منه، والثاني أن يذهب إلى ثغر من ثغور الإسلام للجهاد فيه، والثالث أن يأتي يزيد بن معاوية في دمشق، فيطلب منه الحلين الأولين، إلا أن المفاوضات لم يكتب لها النجاح.

مع رفض الحسين للتسليم، بدأ رماة الجيش الأموي يمطرون الحسين وأصحابه الذين لا يزيدون عن ثلاثة وسبعين رجلًا بوابلٍ من

السهام، كان عمر بن سعد بن أبي وقاص هو أول من رمى، أصيب الكثير من أصحاب الحسين، ثم اشتد القتال ودارت رحى الحرب، وغطى الغبار أرجاء الميدان، واستمر القتال ساعةً من النهار، ولما انجلى غبار المعركة كان هناك قرابة الخمسين صريعًا من أصحاب الحسين، استمرت المعركة تدور في ميدان كربلاء، وأصحاب الحسين يتساقطون ويستشهدون الواحد تلو الآخر، واستمر الهجوم والزحف نحو من بقي مع الحسين، وأحاطوا بهم من جهات متعددة، حرق جيش يزيد خيام أصحاب الحسين، فراح من بقي من أصحاب الحسين وأهل بيته ينازلون جيش عمر بن سعد، ويتساقطون الواحد تلو الآخر.

بدأت اللحظات الأخيرة من المعركة عندما ركب الحسين بن علي جواده يتقدمه أخوه العباس بن علي بن أبي طالب حامل اللواء، ولكن العباس وقع شهيدًا ولم يبق في الميدان سوى الحسين الذي أصيب بسهم مثلث ذو ثلاث شعب، فاستقر السهم في قلبه وراحت ضربات الرماح والسيوف تمطر جسد الحسين، حتى وقع شهيدًا على الأرض.

حسب الرواية فإن شمر بن ذي جوشن، قام بفصل رأس الحسين عن جسده باثنتي عشرة ضربة بالسيف من القفى، وكان ذلك في يوم الجمعة من عاشوراء في المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة، وكان حفيد رسول الله يبلغ الستة والخمسين من الأعوام، ولم ينج من القتل إلا علي بن الحسين السجاد، وذلك بسبب اشتداد مرضه وعدم قدرته على القتال فحفظ نسل أبيه من بعده.

كانت نتيجة المعركة واستشهاد الحسين على هذا النحو مأساةً مروعةً أدمت قلوب المسلمين وغير المسلمين، وهزت مشاعرهم في كل أنحاء العالم، وحركت عواطفهم نحو آل البيت، وكانت سببًا في قيام ثورات عديدة ضد الأمويين، تصدى لها يزيد ومن بعده بمنتهى القوة والعنف.

حدث خلاف كبير لدى أهل السنة والجماعة حول المكان الذي دفن فيه رأس الحسين، فهناك من قال إن الرأس دفن مع الجسد في كربلاء، وهو ما عليه جمهور الشيعة، حيث الاعتقاد بأن الرأس عاد مع السيدة زينب إلى كربلاء بعد أربعين يومًا من مقتله، وهو اليوم الذي يجدد فيه الشيعة حزنهم، وهناك من يرى أن موضع الرأس بالشام، وهو على حسب بعض الروايات التي تذكر أن الأمويين ظلوا محتفظين بالرأس يتفاخرون به أمام الزائرين، حتى أتى عمر بن عبد العزيز وقرر دفن الرأس وإكرامه، كما ذكر "الذهبي" في "الحوادث" من غير وجه، أن الرأس قُدم به على يزيد، وهناك من يجزم بأن موضع الرأس بعسقلان، وهذا الرأي امتدادٌ للرأي الثاني، حيث لو صح الثاني من الممكن أن يصح الثالث والرابع، وتروي بعض الروايات ومن أهمها المقريزي، أنه بعد دخول الصليبيين إلى دمشق واشتداد الحملات الصليبية، قرر الفاطميون أن يبعدوا رأس الحسين ويدفنوها في مأمنٍ من الصليبيين، وخصوصًا بعد تهديد بعض القادة الصليبيين بنبش القبر، فحملوها إلى عسقلان ودفنت هناك، وهناك أيضًا من يقول إن موضع الرأس بالبقيع بالمدينة، وهو الرأي الثابت عند أهل السنة لرأي شيخ الإسلام ابن تيمية، حين سئل عن موضع رأس الحسين، فأكد أن جميع المشاهد بالقاهرة وعسقلان والشام مكذوبة، مستشهدًا بروايات بعض رواة الحديث والمؤرخين مثل القرطبي والمناوي وبناءً على هذا، فهناك رواية بأن موضع الرأس بالقاهرة، حيث يروي المقريزي أن الفاطميين قرروا حمل الرأس من عسقلان إلى القاهرة، وبنوا له مشهدًا كبيرًا، وهو المشهد القائم الآن في حي الحسين في القاهرة، وهناك رواية محلية بين المصريين ليس لها مصدر معتمد سوى حكايات الناس وكتب المتصوفة، أن الرأس جاء مع زوجة الحسين عنه

شاه زنان بنت يزدجرد الملقبة في مصر بأم الغلام، التي فرت من كربلاء على فرس.. وأخيرًا فهناك رأي يقول إن موضع الرأس مجهول.

بعد استشهاد الإمام الحسين هدأت كثيرًا حركة المعارضة على حكم يزيد، وإن استمر عبد الله بن الزبير في معارضته حتى وفاة يزيد، لن نتحدث كثيرًا عن يزيد أو ما أطلق عليه بشرب الخمر وادعائه بعدم نزول وحي من الأساس، بل سنكتفي بما أجازه معظم علماء السنة بـ "ألعن يزيد ولا تزيد".

رحم الله الإمام الحسين، وجازى من أخرجوه ثم تخلوا عنه.